الباب الرابع

في أحوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم

في الإنفاق

الباب الرابع

في أحوال النبي ﷺ في الإنفاق

اصطفى الله سيدنا محمداً ﷺ من بين خلقه، ليكون المبلغ عنه رسالته، فأدبه فأحسن تأديبه، فكان ﷺ في الذروة من كل فضيلة، والقدوة في كل مكرمة، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١]، فكان ﷺ في الكرم والجود قمة لا ترتقى، لا يستقر المال في يده، كما لا يستقر ماء المطر في المكان العالي.

لا يألف الدرهم المضـــروب صـرته

لكـــن يمـــر عليهـــا وهـــو منطلق

وأحواله ﷺ في ذلك لا يتمكن من البيان عنها قلم ولا كتاب؛ ولكن كل يذكر من ذلك وسعه، ونحن نذكر هنا بعضاً منها بحسب المقصود.

فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم، واللفظ لمسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرة المدينة عشاء،

ونحن ننظر إلى أحد، فقال لي رسول الله ﷺ: يا أبا ذر! قال: قلت: لبيك يا رسول الله! قال: ما أحبُّ أن أُحُداً ذاك عندي ذهب، أمسي ثالثة عندي منه دينار، إلا ديناراً أرصده لدين؛ إلا أن أقول به في عباد الله هكذا -حثا بين يديه- وهكذا: -عن يمينه- وهكذا -عن شماله-.

قال: ثم مشينا فقال: يا أبا ذر! قال: قلت: لبيك يا رسول الله! قال: إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة، إلا من قال هكذا، وهكذا، وهكذا -مثلما صنع في المرة الأولى-.. »[1] الحديث.

هذا حاله ﷺ في الحث على الصدقة وإنفاق المال في وجوه الخير، وأنه لا يقتصر على نوع من وجوه البر، بل ينفق في كل وجه من وجوه الخير يحضر، وهذا هو معنى إشارته وحثوه ﷺ بين يديه وعن يمينه وعن شماله[2].

وهذا الحديث يبين عظيم حال النبي ﷺ في الصدقة، فها هو ﷺ يذكر أنه ما يحب أن عنده مثل جبل أحد من الذهب، يظل

(١) البخاري (٥/ ٢٣١٢)(٥٩١٣)، مسلم (٢/ ٦٨٧)(٩٩٢).

(٢) انظر: شرح النووي (٧/ ٧٢-٧٣).

عنده منه دينار بعد ثلاثة أيام، إلا يكون قد أنفقها في عباد الله، وحثا بيديه ﷺ بين يديه وعن يمينه وعن شماله.

وكلامه ﷺ محمول على الحقيقة، فلا يقال: إن هذا من باب المبالغة، وأنه لو كان حقيقة لكان من السرف أو لا يمكن تحققه؛ فإنه قد صدق قوله ﷺ بفعله حين قسم غنائم غزوة حنين، وكانت كثيرة جداً، فكانت ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، وأربعة وعشرين ألفاً رأس من الإبل، وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، فأما السبي فردهم على أهليهم بعد أن جاءوه، وكان قد انتظر بضع عشرة ليلة لم يقسم الغنائم، يريد أن يقدم عليه وفد هوازن تائبين فيرد عليهم أموالهم، فلم يأته أحد، فقسم المال والسبي، ثم رد إليهم السبي.

فهذا المال الكثير قسمه ﷺ كله، فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل، فقال: ابني يزيد؟ فأعطاه مثلها، فقال: ابني معاوية؟ فأعطاه مثلها.

وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخرى فأعطاه إياها، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل، وكذلك أعطى رجالاً من رؤساء قريش وغيرها مائة مائة

من الإبل، وأعطى آخرين خمسين خمسين وأربعين أربعين، حتى شاع في الناس أن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة، وانتزعوا رداءه، فقال: «أيها الناس! ردوا عليَّ ردائي، فوالذي نفسي بيده! لو كان عندي شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً».

ثم قام إلى جنب بعيره فأخذ من سنامه وبرة، فجعلها بين أصبعيه ثم رفعها، فقال: «يا أيها الناس! والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»[1].

وذلك منه ﷺ تصديق لربه الذي أدبه فأحسن تأديبه؛ فإنه قد روى عن ربه ﷻ أنه أمره بالنفقة ووعده بالجزاء؛ ففي صحيح مسلم عن همام بن منبه أخي وهب بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، فذكر أحاديث منها: وقال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال لي: أنفق أنفق

(١) سنن البيهقي (٦/ ٣٣٦)، سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٢٢)، قال الألباني في فقه السيرة (ص:٤٠٥): «صحيح».

عليك»[1].

وقد كان ﷺ موصوفاً بذلك، حتى قالت له أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها عندما رجع إليها من حراء يرجف فؤاده وقال: «لقد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا. والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[2].

وعن أنس رضي الله عنه: «أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ غنماً بين جبلين، فأعطاه إياه، فأتى قومه فقال: أي قوم! أسلموا، فوالله إن محمداً ﷺ ليعطي عطاءً ما يخاف الفقر».

وعن ابن شهاب قال: «غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح فتح مكة، ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين، فاقتتلوا بحنين، فنصر الله دينه والمسلمين، وأعطى رسول الله ﷺ يومئذٍ صفوان بن أمية مائة من النعم، ثم مائة، ثم مائة».

قال صفوان: «والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه أحب الناس

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) البخاري (١/ ٤)(٣)، مسلم (١/ ١٣٩)(١٦٠).

إليّ»[1].

بل كان النبي ﷺ لا يرد من سأله، ولا يسأل شيئاً فيمنعه، وهو موضع القدوة لنا، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: «جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة، فقال سهل للقوم: أتدرون ما البردة؟ فقال القوم: هي شملة، فقال سهل: هي شملة منسوجة فيها حاشيتها، فقالت: يا رسول الله! أكسوك هذه؟ فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها، فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة، فقال: يا رسول الله! ما أحسن هذه فاكسنيها، فقال: نعم، فلما قام النبي ﷺ لامه أصحابه فقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجاً إليها، ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئاً فيمنعه، فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ، لعلي أكفن فيها»[2].

فانظر كيف يصف الصحابة رضي الله عنهم النبي ﷺ، ويخبرون عنه إخبار من يعرفه بالمجالسة وطول الصحبة: أنه لا يرد من سأله، وهذا منه مبالغة في الامتثال، فقد نهاه الله عن أن ينهر السائل إذ

(١) مسلم (٤/ ١٨٠٦)(٢٣١٣).

(٢) البخاري (٥/ ٢٢٤٥)(٥٦٨٩).

قال: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ ﴾ [الضحى:١٠] وكأنه ﷺ كان يرى رد السائل من الانتهار، فكان لا يرد من سأله، وهو إذ كان هذا حاله، فإنه موقن بأن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولذا لم يكن يبالي بها، ولا يشاح عليها، ولا يبخل بها، ولا يحرص على جمعها؛ لأنه كان ينظر إلى ما أعده الله له في الجنة، فكان يجود بالدنيا ويبيت طاوياً، ويفرق الأموال ويبقى -الشهر والشهران- ما يوقد في أبياته نار، وإنما كان طعامه الأسودان: التمر والماء، وما يهدى له من اللبن من الأنصار، وخيَّره الله بين أن يكون عبداً رسولاً أو ملكاً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً، وعرض عليه أن يجعل له بطحاء مكة ذهباً، فأبى وقال: بل أجوع يوماً وأشبع أياماً، «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»(١).

وشد من سغب أحشاءه وطوى
تحت الحجارة كشحاً مترف الأدم
وراودته الجبال الشم من ذهب
عن نفسه فأراها أيما شمم
أكرم بخلق نبي زانه خلق

(١) مسلم (٢/ ٧٣٠)(١٠٥٥).

بالحسن مشتمل بالبشر متسم
كالزهر في ترف والبدر في شرف
والبحر في كرم والدهر في همم[1]

ووصفه ابن عباس رضي الله عنهما بأنه: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»[2]، وعلاقة الجود بمدارسة القرآن تتضح من قول عائشة رضي الله عنها تصفه ﷺ: «كان خلقه القرآن»[3]؛ فحين يدارس القرآن يطبقه غضاً طرياً، حال كونه قريب عهد به، وبلقاء أمين الوحي وروح القدس جبريل عليه السلام، ولهذا ذكر الإمام النووي رحمه الله من فوائد هذا الحديث أن مجالسة الصالحين تنفع المرء في هذا الجانب.

والشح بالمال، والإمساك عن الصدقة، إنما تنشأ في المرء من حب الدنيا، وقلة اليقين بما عند الله، وقد عصم الله رسوله ﷺ

(١) قصيدة نهج البردة للبوصيري.

(٢) البخاري (١/ ٦)(٦).

(٣) مسند أحمد بن حنبل (٦/ ٩١، ١٦٣، ٢١٦)، قال الألباني في صحيح الجامع الصغير حديث رقم (٤٨١١): «صحيح».

من حب الدنيا، فلذا كان أجود الناس وأسخاهم، حتى إنه كان يعطي المال يتألف به القلوب ليرغبها في الدين، ويحدوها به لتلحق بركب المؤمنين، كما مر في حديث صفوان، وقال في حديث آخر: «إني لأعطي الرجل وغيره أحبُّ إليَّ منه، خشية أن يكب في النار على وجهه»[1]، وهذا من كمال رحمته بأمته ﷺ، فنعم المال الصالح في يد العبد الصالح! يسخِّره في سبيل الله.

ولما كان النبي ﷺ هو المربي الكامل، كان هذا حاله في الإنفاق، وكان هذا هو موقفه من المال، وهو القائل ﷺ: «ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم... »[2] الحديث.

ولا يضره ألا يبقى معه المال، كما يتصور كثير من الناس اليوم؛ أن المال لا بد أن يبقى في أيديهم وفيراً، ليكونوا في عداد الأغنياء؛ فيبخلون به من أجل ذلك، قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»[3].

---

(١) البخاري (١/ ١٨)(٢٧)، مسلم (١/ ١٣٢)(١٥٠).

(٢) البخاري (٢/ ٥٣٤)(١٤٠٠)، مسلم (٢/ ٧٢٩)(١٠٥٣).

(٣) البخاري (٥/ ٢٣٦٨)(٦٠٨١)، مسلم (٢/ ٧٢٦)(١٠٥١).

*   *   *

*   *

*